15ème Année No. 715

Lundi — 17 — 8 — 1947

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧١٥ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٦٦ — ١٧ مارس سنة ١٩٤٧ » السنة الخامسة عشرة

بدع التشبيـــه ...

للأســـتاذ عباس محمود العقاد

جاءني خطاب من « مستفسر » يسألني فيه بعض التوضيح لمسألتين عرضت لهما في محاضرة عن « الأدب المصري بين حربين » ألقيتها في نادي خريجي القسم الإنجليزي بالجامعة المصرية . وهما بدعة التشبيه والروايات التي تسمى بالملاحم الاجتماعية .

أما بدعة التشبيه فقد كانت مناسبة الكلام فيها أن أدباء الصناعة كانوا يحسبون الوصف فرصة لاختلاق الأشباه التي لا أصل لها في الطبيعة ولا في إحساس الشاعر . فكان الشاعر يصف الدمع الأحمر لأنه استنفد ماء شئونه فجرى الدمع من دم ماقيه ، فيأتي بعده من يعارضه بوصف الدمع الأخضر أو الدمع الأسود أو الدمع الأصفر إلى غير ذلك من الألوان التي لم تشاهد قط في عين إنسان .

فمن تعليلاتهم لاحمرار الدمع قول الأرجاني :

دنون عشـــية التوديع مني ... ولي عينان بالدم تجريان
ولم يمسحن إكراماً جفوني ... ولـكن رمن تخضيب البنان

فالدمع هنا نوع من صبغة الأظافر أو صبغة الأنامل التي تقابل « المانيكور » في هذا الزمان .

ولـكنه عند ابن سناء الملك انعكاس لون الخدود :

لا تحسبوا أني بكيت دماً ... ولئن بكيت فليس بالبدع
لـكن دمي حين قابلـه ... ألقى شعاع الخد في الدمع

وكذلك هو عند الباخرزي حين يقول :

شكوت الذي ألقى سهاداً وعبرة ... وقلت احمرار الدمع يخبر عن وجدي
فقال محال ما ادعيت وإنمـــا ... سرقت بعينيك التورد من خدي

أما ابن الساعاتي فالدمع عنده مطر ، والمطر من البرق ، والبرق كالصفائح الدامية ... فلا عجب أن تجري الدموع بلون الدماء كما قال :

سلوا بالحمى أين الظباء السوانح ... وهل ظل بعدي بانه المتناوح
جرى ماء عيني يوم كاظمة دماً ... فأعلمني أن البروق صفائح

وتتحول المسألة إلى أنبيق تقطير عند يوسف بن لؤلؤ الذهبي فيقول :

قالوا تباكى بالدموع وما بكى ... بدم على عيش تصرم وانقضى
فأجبتهم هو من دمي لـكنه ... لما تصعد صار يقطر أبيضا

وإلى هنا تنحصر المشابهة في الدمع والدم وهما في بنية الإنسان وفي تركيب العيون .

إلا أنها لا تنحصر فيهما طويلا حتى يعرض لحلها خليل ابن إيبك الصفدي شارح لامية العجم فيروي في كتابه « تشنيف السمع بانسكاب الدمع » أن الدمع يسود كما قال بعضهم :

وقائلة ما بال دمعك أسودا ... وجسمك مصفر وأنت نحيل
فقلت لها أفنى جفاؤك مدمعي ... وهذا سواد القاتمين يسيل

ويعجب الصفدى بالمعنى ولكنه يستضعف الشعر « كأنه عروس جليت فى ثياب حداد » ... ثم ينتقل إلى الدمع الأخضر فيروى هذين البيتين :

وقائلة ما بال دمعك أخضرا ... فقلت لها : هل تفهمين اشارتى
ألم تعلمى أن الدموع تجمدت ... فأجريتها يا محنتى من مرارتى

ويعود الصفدى فيعقب قائلا : « وهذا المقطوع ركيك . وإنما الاستطراد اضطرنى إلى ذلك . ولقائله عذر واضح لكونه دفع إلى مضيق هذا الجواب ، وكنت قد كلفت نظم شىء فى الدمع الأخضر فاتفق لى هذا المعنى فنظمته وهو :

يقول عذولى ما لدمعك أخضرا ... جرى فى هوى ظبى غلا فى نفاره
فقلت صفا دمعى وقابلت صدغه ... فأبصرب فيه لون آس عذاره

وتبرعت بالنظم فى الدمع الأصفر فقلت :

وقائلة ما بال دمعك أصفرا ... فقلت لها ما حال عن أصل مائه
ولكن خدى اصفر من سقم الهوى ... فسال به والماء لون إنائه

وهكذا كانوا يفهمون الوصف على أنه مناسبة لاختلاق التشبيهات التى لاوجود لها فى الحس ولافى الطبيعة ، ولايشبهون لتقريب المحسوسات إلى العاطفة أو الخيال .

فلما خلص الشعر من أوهاق الصناعة بطل هذا الاختلاق وأعقبته محاولة التشبيه للتقريب وصدق التمثيل . وهذه خطوة تقدم لا شك فيه ... فلا يقدح فى هذا التقدم أن يكون السابقون أبرع من اللاحقين فى اصطياد التشبيهات وتمحل المناسبات . فإن الذى يعمد إلى التشبيه لأنه يحس ويتخيل خير من الذى يعمد إليه لأنه يعرض براعته فى التلفيق والاختلاق ، وإن قصر الصادق عن المختلق فى ظواهر التشبيه .

عرضت لهذا التطور فى سياق الكلام على نهضة الشعر الحديث بعد هبوط الصناعة به إلى ذلك الحضيض . فبلغ من دهشة السامعين أن طالباً أزهرياً منهم ظن أننى وضعت هذه الشواهد من عندى لتمثيل تلك النزعة واستبعد أن يجد شاعر فى نظم تلك السخافات . فأرضانى منه هذا الشك لأنه كان من أدل الدلائل على ارتقاء الأذواق وتطور الأفهام . فما كان براعة يتسابق إليها الأدباء قبل بضعة قرون أصبح فى زماننا هذا سخفاً لا يعقل أن يخطر على بال أديب ولا قارىء ، وكفى بذلك دليلا على نشأة الأدب من جديد بعد ذلك المسخ وذلك الانحدار .

ويحق لمن أراد أن يستزيد من تحقيق تلك الأعجوبة أن يعرف مرجعها فى ذلك الكتاب الذى أشرنا إليه ، فإن كتاب « تشنيف السمع » قد طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق وليس هو بالمخطوط النادر الوجود

* * *

أما الروايات المطولة التى سميناها باللاحم الاجتماعية فقد عرضنا لها فى المحاضرة لنقول إنها لم تظهر فى الأدب المصرى لأنها تتوقف على قيام الشكلات الاجتماعية التى تدور عليها . وستظهر فى حينها متى ظهرت موضوعاتها وظهر أبطالها وذوو « الشخصيات » التى تؤدى أدوارها فى الحياة

وقد خطر لبعض السامعين أن يناقش هذا الرأى لأنه أخطأ فهم العنوان وأخطأ فهم التطبيق .

فقد حسب أن القصة التى تسمى باللحمة Epic وقف على موضوعات كموضوعات الإلياذة وما إليها ، أو أنها مقصورة على معارك الحروب وبطولة القتال .

وليس لذلك مسوغ من أصل الكلمة ولا من تطبيقها فى الروايات .

فإن الكلمة اليونانية لاتشير فى أصلها إلى حرب ولا أسطورة إلهية . ولا تتجاوز معنى الأقصوصة أو الأنشودة .

وتطبيق هذا العنوان القديم لا يستلزم حصر اللحمة فى الأساطير لأن رواية موتلى عن الجمهورية الهولندية تحسب من اللاحم وهى تدور على وقائع التاريخ .

وهو لا يستلزم حصر اللحمة فى المعارك الحربية لأن « الكوميدية الإلهية » ملحمة وليست هى من روايات المعارك الحربية ، ولو جاز الأخذ بالقشور لما جازت تسميتها بالكوميدية ولا « بالأوبى » على هذا الاعتبار .

وإنما تطلق الملحمة فى عصرنا وقبل عصرنا على كل قصة مطولة تدور على موضوع فخم من موضوعات البطولة والعظمة ، وهى من ثم صالحة لأن تظهر فى كل زمان متى ظهر الموضوع الذى تدور عليه ، وليس من الحتم أن تقف بعد عصر هوميروس أو عصور الأساطير .

عباس محمود العقاد